رانية مأمون: قاصّة وروائيّة من السودان. صدر لها: **فلاش أخضر، و١٣ شهرًا من إشراق الشمس.** أسهمتْ مع كتّاب آخرين في ثلاثة كتب، آخرُها: **قصص من السودان** (باريس، ٢٠٠٩) **وهنا مركز العالم** (هولندا، ٢٠٠٩).

عبور

تتكرّر زياراته إليّ، ويطرح عليّ الأسئلة نفسها بنبرة الحزن نفسها:

– ألم تصبحي طبيبة كما وعدتني؟

أجيب بالشعور الطاغي بالندم نفسه:

– للأسف، لا!

– كنتُ أضع فيكِ أحلامي، وظننتكِ ستحقّقينها.

أصمتُ لعدم قدرتي على الردّ. أو ربما لأنّ إحساس الحيبة الذي يتقطّر من كلماته يصيبني بالخرس.

❖ ❖ ❖

رائحتكَ مدبوغةٌ في شقوق الحائط ممتزجة بذرّات التراب. تتسلّل إليّ وتغمر هواء الغرفة. تغمرني. أمدّ يدي كي أمسّها، علّي أَمَسّك من خلالها، علّي أمسُ كفّك البضّة، وجهَك، يدَك. أحسّكَ قريبًا.. قريبًا جدّاً. أحسّك، فيّ، داخلي.

رائحتك تفتح مشارع الذكرى، فتغزوني بغتةً مثل جيوش النمل. تلسعني بقوةٍ وفوضى: في عينيّ، وجلدي، ومسامي، ودمي، وأذنيّ وهما تلتقطان ذبذبات صوتك الحاني. تغمرني الذكرى، فأستشعر دفءَ حضنك ودفءَ السرير عندما كنت أنام قربك في طفولتي بدلاً من أمي. عندما تأتي من مأموريّتك ألتصقُ بك مثل الغراء. تحاول أمي أن تبعدني، فلا أستجيب. تقول لي: «غدًا سيسافر.» أقول لها: «ولكنه سيعود.»

الآن، بعد أن كبرتُ، وبعد أن ذهبتَ، وبعد أن أسلمتني لهذا الفقد الذي يصعب التعايشُ معه، لن أستطيع أن أجيب الإجابة عينها أو أكون باليقين عينه.

رائحتك تخرجني من دوّامة ذكرى لتقذفني في أخرى أوسع وأعمق، وتضخّم فيّ إحساسَ وجودك قربي. تحتسي الشايَ، بكوبك الكبير الذي مازلنا نحتفظ به ـ وكم كنتَ تحب الشاي! بعده تستمع إلى الراديو مستلقيًا على قفاك، واضعًا رجلاً فوق أخرى، تعبث في حقيبة ذكرياتك، وتناديني كي أقرأ هذه الورقة أو تلك. أحيانًا يخاتلني طيفُك وأنت تتوضّأ تهيّؤًا للصلاة. أستدعي الآن فرحتك عندما انتقلنا إلى هذا المنزل قرب المسجد، حيث قوةُ الأذان تضرب داخل القلب. قلتَ: «أكثر ما يفرحني هو جواري للمسجد، أهناك أفضلُ منه جارًا؟»

❖ ❖ ❖

اليوم عيد. الكلّ يرفرف فرحًا. مؤذّنُ الجامع يُكبّر ويهلّل، والأطفالُ من بعده يكرّرون: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله. الله أكبر ولله الحمد.

أبناءُ إخوتي يدخلون ويخرجون فرحين بملابسهم الجديدة، وحلوى العيد لا تفارق أفواهَهم. يأتون إليّ ويضجّون:

– إيّاد: وين العيديّة؟ ما قلتي ح تدينا ليها بعدين!

– براءة: أدّينا سرعة عشان ماشين الطوطحانيات [المراجيح].

– زياد: إنتي ح تدينا كم؟ العيديّة بتكون كتيرة، أدينا قروش كتيرة، عليك الله.

حينها، كنتُ أضع اللمسات الأخيرة في ترتيب البيت. أعدِّل من وضع الستائر، أشدّ الملاءات الجديدة، أزيد الجمرات في المبخر حيث أعوادُ الصندل تكمِل بهجة العيد وتهبها رائحتها.

أسمع أختي تنادي على أمي:

– يُمَّة.. يُمَّة.. تعالي شوفي أبويّ دا مالو.. شكلو تعبان شديد.

تذهب أمي. تتلمّسه. تسأله. لا يجيب. تطلب إليها أن تنادي أخي كي يُحضِر جارَنا الطبيب.

في ذلك اليوم غسلتْه أختي في الصباح وألبستْه جلبابَه الجديد. عطّرته وأخبرته أنّ اليوم هو العيد. يبدو أنه لم يدرك ما تقول، أو عرف ما هو العيد. تسأله فلا يجيب، بل لا يعطي الإحساس بأنه سمعك. ينظر إليك فتخال أنه لا يراك بل يرى عَبْرك.

سقته الشاي الذي يحبّه، وأعادته إلى رقدته في السرير وغطّته جيّدًا. سألتها:

– قدر يشرب الشاي؟ رجّع؟

– ايوه شرب. لكنْ ما متأكّدة ح تحتفظ معدتو بيهو ولا ح تطلّعو.

❖❖❖

كنتُ طفلته الأثيرة. عندما يراني جالسةً بهدوء وحدي لا أتسامر مع بقيّة الأسرة يقول:

– مالك، في شنو؟ قاعدة براكي ليه؟ أمشي أقعدي مع إخوانك وإتونسي معاهم، ما بحب أشوفك قاعدة براكي كدا.

كان يخصّني بكلّ شيء يحْضره: حلوى، نقود، قصب سُكّر، فول، تسالي. يخصّني بالحنان، بالقرب منه، بكلّ شيء .وعندما يحتجّ إخوتي يتحجّج بأنّي آخرُ العنقود.

يعلن دومًا عن آماله الكبرى فيَّ: ابنتي هذه أريدها طبيبة. يناديني دائمًا «دكتورة.» وكنتُ أطرب لهذا النداء. وبعد كلّ هذا الحنان عجزتُ عن تحقيق رغبته.

❖❖❖

في انتظار الطبيب كنتُ أجلس قرب رأسه وهو ممدّدٌ على السرير. ألاحظ حبيْباتٍ من العرق على حبينه ورأسه الأصلع. أمسحها بيدي مجرّدةً من أيّ منديل. يندّي جبينه مرةً أخرى. أمسحه مرةً أخرى. يستمرّ في الندى. وأواصل المسحَ بيدي العارية.

عندما حضر الطبيب وجَدَنا نحيط به: أمي تدلّك قدميه المتشنجتين، أختي على الطرف الآخر من السرير تمسك بيده، أخي واقفًا ليس ببعيد، وأنا على رأسه ماسحة جبينَه باستمرار. عاينه بدّقة. أمي انتبهتْ إلى نظرات أبي. ربما أدركتْ ما كان يحدث. بدأتْ تردّد الشهادتين. الطبيب لم يطلب إليها الصمتَ، بل واصل قياسَ الضغط وفتحَ عينيه وقراءةَ نبضه. رأيتُ شفتيْ أبي تتحرّكان وتردّدان بعد أمي الشهادتين بصوتٍ خفيضٍ يكاد لا يُسمع. ثم غاب الصوتُ وبطؤت حركةُ الشفتين.

في لحظةٍ فاصلةٍ ندّى الجبينُ بغزارة. توقفت الشفتان عن الحركة. رفع الطبيبُ رأسه وعلى وجهه تعبيرٌ آسف.

لجهلي لم أكن أدرك حتى تلك اللحظة أني أمسح أثرَ تعرُّق خروج الرُّوح، ولم أدرِ أنها خرجتْ. ربما عَبَرتْ قربي، ربما اصطدمتْ بي أثناء عبورها، ربما ودّعت، لوّحتْ، أو ابتسمتْ. لكني، رغم قربي، ما رأيتُها قطّ.